تاريخ حياة ألف ليلة وليلة

للاستاذ الكبير : أحمد حسن الزيات

أستاذ الادب العربي بدار المعلمين العليا ببغداد

تفضل الكاتب الكبير ، والعالم الاديب ، الاستاذ أحمد حسن الزيات، فبعث الينا بهذا البحث الممتع ، الذي سيردفه بقيته فى فرصة أخرى ان شاء الله .
والاستاذ الزيات : أديب ذائع الصيت ، وكاتب واسع الشهرة ، يكاد ينفرد فى أسلوبه بميزة الجودة ، وحسبه فخراً أن يكون الاديب المصرى الوحيد ، الذى اختارته حكومة العراق لتدريس الادب العربى بمعاهدها .
المحرر

يخطو الدهر دائباً فى وناء وكبرياء وصمت ، فيعفو الأثر ويفرى الحجر ويبرى الحديد، وتنال يده العابثة كل شىء فى حياة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئاً واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر فى قراره، ويكمن كمون السر فى دخيلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبا وأحلام الحداثة ، فهى باقية والجسم يتخونه البلى ، ثابتة والعيش تزعزعه الأحداث ، ناضرة والمنى يصوحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهم ظلام وسحب؛ فمن منا لا يذكر أول بيت أبصر فيه الوجود ، وأول ملعب عرف فيه الرفيق ، وأول مكتب رأى فيه المعلم ، وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟ ومن منا لا يذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، فى غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدة الحنون أو الأم الرؤوم أو الظئر الحانية ، فينصتون، فى سكون وشوق، إلى ما تقصه عليهم من روائع الأسمار وبدائع الأقاصيص، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدث، فى حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن يخدر الأعصاب الطفلية الرقيقة : فتغفو تحت جنح الكرى وتسمع بقية الحديث الشهى فى الحلم ؟

هذه الأقاصيص الشائقة التى كانت لعقولنا الصغيرة سحرا، ولعواطفنا المشبوبة سكرا، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هى نوع من الأحلام والأمانى تراءت فى ليل الحياة الطويل، ثم تجمعت فى ذاكرة الزمن القديم، وتنقلت من عهد إلى عهد ، ومن مهد إلى مهد ، ومن بلد إلى بلد، تحمل فى طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية، وعطور الأزمن البعيدة السعيدة: فوجودها أثر لوجود الانسان، لأنها ظاهرة طبيعية من ظواهره: كالغناء والشعر والرقص: فلا تعرف لها أولية، ولا تحدد فى الغالب لظهورها علة ؛ ولكن علماء الأساطير يزعمون أنها نشأت فى الهند، وهاجرت منها إلى بلاد الفرس، ثم رحلت إلى بلاد العرب، ثم استقر بها النوى فى أقطار الغرب ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيدة ؛ وأما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب

الخلود، فقد كان لبعضهم ـ ولا شك ـ حظ من الحياة وشهرة بملازمة الأسفار وملابسة الغير، فتحدث الناس أولا بما فعلوا ثم سرجوا حول أسمائهم وأنبائهم الأكاذيب والأعاجيب، حتى أصبحوا أعلاما على شخصيات متميزة: في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم كدعد وليلى في الشعر وأبي نواس وجحا في التنادر.

أما أكثر الأبطال فمن خلق الخيال ابتدعهم رموزا للمثل الأعلى أو القدر العابث أو الجد العاثر أو السلطان الجائر أو الهوى المتسلط أو الأمل الآسي أو الحظ السعيد.

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الأمومة أراكم ولا ريب تركتموني أتحدث، وعدتم بالذاكرة إلى تلك العهود الحبيبة، تتخيلون سحرها، وتستعيدون ذكرها، وتصيخون إلى ذلك الصوت الحنون ينبعث خافتا من أعماق الماضي القريب أو البعيد، مردداً أسماء أولئك الأبطال الذين طالما اكتأبتم لاكتئابهم، وتألمتم لمصابهم، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب، وبأساء الحرب، ولأواء المطلوب من أمثال: حسن البصري، ونور الدين المصري، والشاطر محمد، والشاطر حسن إلى آخر ما سجلته الذاكرة ... لا أنكر أني كذلك ذكرت حين كتبت هذه السطور هاتيك القبور التي ضمت هواي ورفقة صباي، ونوعا من الحنان والاخلاص، لم أذق له طعما منذ غاض في هوة البلى منبعه .. ثم ذكرت شيئا آخر: ذكرت مجلى من مجالي الأنس في القاهرة كان جمة القلوب وإلفة النفوس ومستجم الخواطر، فعصفت به ريح المدنيـة الحديثة، ذلك منظر المحدث أو القصاص أو السامر أو الشاعر في مقهى الحي، وهو في حلته الشرقية المفوفة الضافية فوق صنته الخشبية البالية العالية، وقد تجمع بين يديه وعن يمينه وعن شماله أوزاع العامة وشيوخ الحلة يستجمون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية، وتدخين النرجيلة العجمية، وتبادل العواطف الأخوية ثم الاصغاء المشترك إلى أبي درويش وهو يقص بصوته العريض المتئد وجرسه الهادىء المتزن حروب عنترة أو وقائع أبي زيد أو مخاطر ابن ذي يزن، فينقلهم بقوة تمثيله أو بحسن ترتيله على جناح الخيال إلى عصور هؤلاء الأبطال فيشهدهم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة، ثم يرى الخبيث أن فورة الحماس أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أسر أو شدة، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار، فلا تجد هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو إلى إطلاق البطل من إساره، وإنقاذ الجمهور من شـدة قلقه ومرارة انتظاره . . وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب والصمت الحالم والمنظر الكئيب قد خفقت فوقها الرايات وأشرقت في جوها الثريات وتلألأت في سمائهـا المصابيح، وأخذت زخرفها بالسامرين، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد، وصاحبنا المحدث قد خرج إلى القوم يتهادى في عمته المكورة، وجبته المعصفرة، وقفطانه الأنيق الأصفر، وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذ تنوس على

بطنه المنتفخ الضخم ، فاذا استوى على عرشه المنجد توهج البخور من جانب وتضوع العطور من جانب، ثم خشعت الأصوات ورنت اليه العيون وأنشأ يحدث ؛ فاذا بدا لأحد أن يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب أولا من أنه لا يعرف، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو: هذه ليلة زفاف عبلة إلى عنتر ؛ فاذا كانت القصة قصة بنى هلال، وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال إلى عصبية شنيعة ، ورأيتم إخوان الأمس قد أصبحوا أعداء اليوم ، فطائفة تتعصب لبنى هلال، وطائفة تتعصب لبنى زناتة، وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر لا يجيب إلا من يجزل له العطاء، فاذا رجحت كفة وشالت كفة، أخذ يروى من ذاكرته وغيبه على هوى الفئة الغالبة ما لم يسجله تاريخ ولم يدونه كتاب، فيزور الغرائب ويختلق الوقائع، ويقمش مما خزنه فى حافظته من مختلف الأسمار ورقائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلة تهز العجب فى قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة فى صدور خصومه ، فاما نفحة أخرى تميل به إلى الجهة الثانية، وإما معركة بين الحزبين تكون هى القاضية .

هذا الرجل الذى صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذى ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ، هو الأثر التاريخى والنموذج الحقيقى لذلك القصاص البارع الذى خلف لنا كتابنا العالمى الخالد ألف ليلة وليلة .

يرجع تاريخ هذا القصاص إلى صدر الاسلام ، والفضل فى وجوده كان أيضاً للقرآن الكريم ، فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب: كتميم الدارى ووهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام ، فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون إلى الناس فى المساجد يفصلون ما فى كتاب الله من قصص الأنبياء ، ويسرفون فى تهويل هذه الأنباء، ابتغاء للعبرة والتماسا للموعظة ، ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر إفك القصاص فيه ، حتى طردهم أمير المؤمنين على من المساجد ماخلا الحسن البصرى ؛ ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول، وقوة أثره فى توجيه الميول، فاتخذوه لسانا للدعاية وسبيلا لافتعال الأحاديث واختلاق الأقاصيص فى الأغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجلا على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه ، وكان هو إذا انفتل من صلاة الفجر جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه ؛ وكان ولاته وقواده يقدمون القصاص فى بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء ؛ فعل ذلك الحجاج فى العراق وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق ، فقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٧٧ أن عتاب ابن ورقاء سار فى أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ثم قال: أين القصاص؟

فلم يجبه أحد. فقال: أين من يروى شعر عنترة؟ فلم يجبه أحد، وسار الشعر والقصص فى ركاب السياسه جنبا إلى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد، ويموهان على العقول صور الباطل، والقصاص كانوا فى ذلك أشد وطأة على الحق، لأنهم ينسبون مايفترون إلى التاريخ أو إلى الدين؛ فلما هدأت ثائرة الأحزاب وسكنت طائرة الفتن ونضجت العقول، عاد القصاص إلى المسجد فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه، والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمانه، فانقلب إلى العامة يسامرهم فى إملائهم وأعراسهم بما أثر من أيام العرب، ونقل من أساطير العجم، وروى من أخبار الفتوح.

وانتشر القصاص فى العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها، وحاجة من حاجات عامتها ورعاعها، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهى على العالم الاسلامى فى أواخر العصر العباسى، وبعده من عنف المتسلطين من السلاجقة وعسف المتغلبين من المغول وغزو المتعصبين من الفرنك، فطلبهم العامة تفريجا للكرب، والخاصة تشجيعا على الحرب؛ ولكنهم كانوا فى مصر أبرع صناعة وأنفق بضاعة وأرفع مكانة، لأن طبيعة إقليمها ونظام اجتماعها وطباع سكانها كانت تعين على ذلك، فهى قطر زراعى ملموم الرقعة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل، فكان لذلك أهله قليلى الأسفار يؤمنون بكل خبر، كثيرى البطالة يميلون إلى اللهو والسمر، وكانوا لا ينفكون بين يسر متدفق مطلق إذا عم الفيضان وعدل السلطان واقتصد الموت، وعسر متجهم كز إذا خش الغلاء وألح الوباء وبغى الحاكم؛ وعلى الحالين كان السامر أو المسامر عنصرين من عناصر الحياة ينضران بهجة العيش فى الرخاء، ويسريان كربة النفس فى الشدة.

وكان أول من تولى القصص الرسمى فى مصر سليمان بن عنتر التجيبى سنة ٣٨هـ تولاه مع القضاء ثم أفرد به، ثم تعاقبت القصاص من بعده فى مصر على اختلاف بينهم فى القدرة والغرض، فكانوا أصداء للعقيدة وأبواقا للسياسة، تسمع منهم فى كل عهد لهجة، ولكل دولة سندا وحجة؛ وترون ذلك أقوى ظهورا فى عهد الفاطميين، فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعتمد على المناظرات فى نشر فقه الشيعة، وعلى القصص فى جذب القلوب لأهل البيت؛ وكان مقتل الامام على ومأساة الامام الحسين موضوع المنابر والسوامر فى شهرى رمضان والمحرم، وقيل إن ريبة حدثت فى قصر العزيز بالله فتناقلتها الأفواه ورددتها الأندية، فطلب إلى شيخ القصاص يومئذ يوسف بن إسماعيل (١) أن يلهى الناس عنها بما هو أروع منها، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعا فى اثنين وسبعين جزءا سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين إلى اليوم، وهى الياذة العرب، لا ينازعها هذا الشرف حتى الآن عمل فنى آخر؛ وفى القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته فى بغداد والقاهرة، ففى عهدى المقتدر بالله العباسى والعزيز بالله

---

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزرى. وممن قال بهذا الرأى الاستاذ كوين برسفال الذى طبع ملخص هذه القصة فى باريس.

الفاطمي،كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الأخبار ويتنافسون فى جمع الأسمار من الوراقين والرحالين والعامة ؛ ولكن القصص فى العراق كان من عمل الكتاب يصورون فيه أنبل عواطف النـاس وأجمل مواقف الحياة ويلقونه زهوراً وعطوراً فى مجالس الخلفاء وسوامر الملوك،فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع ونبالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر،وتنزع بها إلى السليقة العربية المجبولة على الايجاز والقصد فى الشعر والخطب والرسائل والقصص،فما جمعه ووضعه الجهشيارى وابن دلان وابن العطار فى القرن الرابع من الأقاصيص فى الحب الطروب والترف المسرف ، وما وضعه من قبل هؤلاء سهل بن هرون وعلى بن داود وإبان بن عبـد الحميد من الأسمار فى الأمثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء عيسى بن دأب وهشام الكلبى والهيثم بن عدى من الأخبار فى الهوى العذرى والسخاء العربى فى الاسـلام والجاهلية ، كل أولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة . أما القصص فى مصر فكان غالبا من عمل القصاصين والمسامرين يلفقونه من الكتب ويتلقفونه من الأفواه ويحدثون به الدهماء فى المجالس العامة ؛ ورزق هؤلاء القصاص على قدر ما عندهم من القصص ، فاذا ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسـباب العيش،فهم لذلك مضطرون إلى تطويل الموضوع بالاستطراد وبسط الحادث بالتزيد وجذب القلوب بالاغراب والمبالغة، ومن ثم اتخذ الأدب القصصى فى مصر شكلا لا عهد للأدب العربى به . ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذى نفهمه من كلمة رومان (ROMAN) فى اصطلاح الفرنج ؛ فان المعروف الشائع من قبل إنما كان المثل (FABLE) والأقصوصة (CONTE)والحكاية (NOUVELLE) وهذه الأنواع قد تولد بعضها من بعض على نحو مايرى الأستاذ (برونيير) الناقد الفرنسى من تطبيق مذهب التطور على الأنواع الأدبيـة ؛ فالأقصوصة نشأت من المثل، والحكاية نشأت من الأقصوصة، والقصة نشأت من الحكاية باتساع الخيال وفعل المبالغة وحكم الزمن ؛ ولكن القصة العربية قد تأخر نشوؤها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر لأن عملها يقتضى التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب ، والعرب فى عهودهم الأولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الأمور ، ثم كانوا فى عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأنهم فيضطرون فى حضرة الملوك أن يراعوا أدب الحديث فلا يغرقون فى الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون فى السمر حتى يجاوز المجلس ، ولا يسفون فى القول حتى يصادم الخلق ؛ أما القصاص المصرى فقد تهيأت له الأسباب اللازمة لخلق القصة : كان سمير الأوزاع والعامة فلم يتقيد معهم بقوانين الخلق ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ويستعمل الألفاظ القبيحة ويبالغ فى الخلط والتلفيق قصـدا إلى الاغراب والتشويق،ويعتمد غالباً على

المفاجآت القوية ويستطرد كثيراً إلى الحوادث العرضية ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق لأنه يجهلها والجمهور الذى يسمعه لا يعلمها، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ويجمع شتى الأحاديث ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التى كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصرى يعتمد فى مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف إلى ذلك ما تنوقل فى مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ماراوا من الأعاجيب كما فعل اليعقوبى وابن فضلان وبزرك بن شهريار مثلا ، أو يحدثون بها الناس كأن يقولوا ماحكاه ابن خوداذبة من أن فى بعض الأمم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لاتزيد قامة أطولهم على أربعة أشبار، وفى جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب وجسمه كجسم الثور أو الأسد ، وما جاء فى كتاب المستطرف من أن فى البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفارس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل ، وما رأى الرحالون بالطبع هذه الأشياء وإنما رأوا صورها على الآثار التى خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الأخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول تدور حوادثها على بطل واحد ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد إلى حوادث شتى لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية ؛ انظروا مثلا كيف صنع قصة عنترة : بناها على حادثة أصلية صحيحة هى حرب داحس والغبراء التى شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو عنترة بن شداد العبسى فذكر نشأته فى حادثة خرافية جذابة ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه وما اتصل بذلك من عادات البدو كالضيافة والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر، ولكن حروب عبس وذبيان مهما هول فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلا ولا تدر عليه من المال كثيرا ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعا بالنكول والعجز ؛ والقصاص فى أثناء ذلك ينقلنا فى السهول والأودية ، ويقلبنا بين المضارب والأخبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل فى الخواطر من طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد ؛ ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد وأن الأمد الذى يريده بعيد فيخرج البطل من الجزيرة [illegible]بية ويقدم إلى مصر بلد القصاص فسيقود عنترة بها حروبا ويهلك شعوبا ويبتنى حصونا لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه ، ثم يذهب به إلى القسطنطينية ويزوجه من رومية ، حتى إذا ظفرت المنون أخيرا بالشجاعة

الخارقة عاد ابنه من بيزنطة إلى الحجاز فطالب بعرش أبيه ، وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميتة التى اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة . وكان لامرتين لا ينفك بها معجبا ومنها طروبا فقد ذكر أن الأسد الرهيص أحد خصوم عنترة المقهورين الموتورين رماه غيلة بسهم مراش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت فى جسمه الوثيق خشى على قومه من بعده شر الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطيا جواده متكئا على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة فارتد الجيش وبقى هو واقفا يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفا منه ، حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، فلما طال وقوفه وجاوز الحد سكونه ارتاب الجيش المهاجم فدبر الحيلة لكشف الأمر فأرسلوا إلى جواده حجراً تهيجه، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبة خر لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن أن القصاص الماهر قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع سليمان بن داود امام عماله المسخرين من الجن وقد أجملته البلاغة المعجزة فى هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلادابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين» .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة فى عصر كان النيل فيه منيع الحوزة باهر الجلالة صافى للورد لا يكدره والغ ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة وعروبته توحى الشهامة ؛ فلما هبت الأعاصير الهوج بالبربرية الجامحة فأطفأت منائر بغداد وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلة بتراث العرب من علم وأدب وخلق ودين،وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر تنبح الهلال الآفل وتنهش المجد الطريد ، رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيبا ، ورأينا القصاص قد اتسع خياله بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلادا لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد فى العمل على الجن والسحر والخوارق ؛ فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ظهرت فى مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غفلا من أسماء مؤلفيها ، لأن القصاص المحترفين إنما كتبوها لأنفسهم ،فيما أرجح، ثم توارثوها خلفا عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة فنشرت على شكلها دون اسم ولا وسم ولا تعريف ، وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذى يزن والاميرة ذات الهمة وفيروز شاه . فاما أنها كتبت فى هذى العهود فذلك واضح لأدنى نظر من لغتها وإسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور،وأما انها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها ؛ فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ..

فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحرى ميدان حروبه ، وسيف بن ذى يزن هو الذى أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحرى الذى دفنه فى جزيرة الروضة بالقاهرة،وهو الذى خطط مدن

مصر: فالجيزة اسم من اسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع إلى فرعى رشيد ودمياط لأن الملك سيفا ــ وهو قادم به من السودان ــ وقف يقاتل الكفار الذين اعترضوه فى رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه، ولكن الماء وراءه قد عب عبابه وطفحت أواذيه فاندفق شطر منه إلى الشمال واتجه الملك بالشطر الآخر إلى اليمين ؛ ومدينة سمنود أصلها سماء نود ، لأن الحكيم نودا صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقعا لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل إلى مصبه ، ثم دفنه المؤلف أخيرا فوق جبل المقطم وقال: إن قبره هو الذى يعرف الآن بالجيوشى .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر فى نسج هذه القصص فى هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التى ألهبتها فى قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على أن يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الأشعار والأخبار فى فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر ؛ فسيف بن ذى يزن كان حنيفا مسلما يقتحم المعاقل والأرصاد على الوثنية والشرك فى معالم الارض ومجاهلها وهو يقول لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله ؛ وكذلك سائر الأبطال فى سائر القصص، إلا أنهم كانوا بعد الاسلام لا قبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر من الهجرة كان حكم المماليك بفساده وحكم الاتراك باستبداده قد أتيا على ما بقى من أركان الاجتماع ، وحللا أواصر الأخلاق والطباع ، ومنى الناس بالحاح الأوباء وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر فأخلدوا إلى التصوف أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والأفيون ، وحارب بعضهم بعضا بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة فى مصر إلى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون متون السبل ويعبثون بالأمن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء، ويجلونهم إجلال الزعماء ، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ، فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذى يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها، كالقصص الذى يدور على الزيبق وأحمد الدنف وحسن شومان ودليلة المحتالة أو دالة المحتالة كما يسميها المسعودى ، وأصبح أسلوب القصاص فى هذا الدور دائرا بين الجهالة والقحة ، فهو يستعمل فى قصصه لغة مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملا محفوظة ووقائع واحدة يرددها فى كل قصة ويكررها فى كل مناسبة ، وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها فى ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتماد الناس فى جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر، فتكدسوا فى السوامر حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الأساطير والاسمار فهبوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل ، فكان مما دون فى تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوعنا ألف ليلة وليلة .

ألف ليلة وليلة : كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب قد لقى من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى طويلا ؛ أغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الأدباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه محمد بن إسحق المعروف بابن النديم فقال: إنه غث بارد ، لأنه نظر إليه نظره إلى الأدب الأرستقراطي الذي يصور ترف الخيال وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتيكيين) في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء، وهب رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور) الشرق أخذ أدباؤنا بحكم التقليد والعدوى يعطفون على أدب السواد، فدونوا اللغة العامية وجمعوا الأغاني الشعبية ونظروا بعض النظر في فن القصص ؛ وسمعوا في رجفة من الدهش إلى قول الأوربيين: أن في أدبنا الموروث كنزا دفينا من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه ؛ ولكنهم لم يخلدوا بديا إلى هذا القول بثقة ، واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي أن يذكر في الكتب، ويوضع في المكاتب ، وينبه الناس إلى فضله ، ويهنأ العرب بانتاجه ! حتى رأينا بعيوننا أنه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى كل لغة، وحل الموقع الأول من كل أدب، وظفر باعجاب النوابغ من كل أمة ، حتى قال فولتير: إنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأه أربع عشرة مرة ، وتمنى القصصي الفرنسي (استندال) أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته ! ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في أصله، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ؛ وأن دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطريف الممتع من فصولها ، وأن الاستاذ فكتور شوفان أفرد له في كتابه تاريخ المؤلفات العربية جزءين سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته ، وأن الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح، فاستخرجوا للأول رواية لص بغداد وللثاني قسمت أو القضاء والقدر ، وأن رجال التربية والتعليم في فرنسا وألمانيا وانجلترا قد اقتبسوا منه أدبا للأطفال فاختصروه وصوروه ؛ ولقيت أنا منذ عامين في القاهرة مستشرقا أسبانيا وآخر أمريكيا قد أرسلت الأول جامعته والثاني جمعيته لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات ألف ليلة وليلة. حينئذ أخذت خاصتنا تقرأه وتسمعه ، ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون إليه في تاريخ الأدب ؛ ولكنهم إلى اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه قد سجل على توالي القرون أطوار اجتماعنا ، وصور بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب

الذى احتقر العامة ؛ فكان منه للناقد الاجتماعى والمؤرخ الفيلسوف والأديب الباحث والكاتب القصصى منهل ثر الينابيع صافى المورد ، وهو فضلا عن ذلك كان للشعب العربى فى زمن انحلاله وضياع استقلاله وصعوبة اتصاله قبس يبعث الحرارة فى النفوس الخامدة وذكرى تلوع القلوب أسى على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع الميول المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون ألف ليلة وليلة علما ثانيا على بغداد ، بل ربما كان أدل عليها اليوم فى نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع فى الحضارة ومكانها البارز فى التاريخ ؛ ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها ؛ أما هى فى هذا الكتاب فلا تزال سناها باهيا لم يخب وصداها داويا لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية فى بغداد متحف زاخر بالأعاجيب دونه ما للحضارة الفرعونية فى مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير فى البلاد وهى ثابتة ، ويتحدث إلى جميع الشعوب وهى صامتة حتى أصبح لفظ بغداد فى جميع اللغات مرادفا للعمران الزاهر والترف العجيب واسم الرشيد رمزا للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر أحد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخى فقال: كان ذلك فى العصر الذهبى إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد... ذلك بعض فضل الكتاب على بغداد، وقد ذكرت من قبل أنه لم يؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بنيها ، وإنما جمع فى مجالس القصص فى القاهرة ، ودون على هذا الشكل فى القاهرة، وطبع أول طبعة كاملة فى مطبعة الحكومة بالقاهرة ثم كان حظها منه أن صورها للناس مثابة للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل، بينما يصور بغداد مهبطا للفضل وموطنا للنبل ومعدنا للكرم وعشا للحب ومظهراً للترف، حتى كان من جراء ذلك أن البغداديين لا يزالون يقولون فى بغداد: (عياق مصر وحيال مصر) ونحن لا زلنا نقول فى القاهرة: تبغدد فلان إذا أظهر البغددة وهى كلمة مشتقة من بغداد تدل على السرف والترف والبطر والنبل . وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب أن القصاص المصرى إذا تحدث عن مصر وهو منها وفيها تحدث عما يرى وعبر عما يسمع ؛ وقد علمنا فى أى عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر ؛ أما إذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وضع من الأقاصيص الجميلة فى بغداد ، ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة ، ويتأثر بما ركب الله فى طباع الناس من تقديس الماضى وتعظيم البعيد، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الأمم، فيأبى وهو فى القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت الرشيد ومصرع بغداد ونكبة المجد الأثيل .

أما بعد فانى أحاول الآن أن أكشف عن حقيقة ألف ليلة وليلة بمقدار ما تهيأت لى المراجع فى بغداد ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته فى مختلف الطبقات، ووقفت على ما نشر عنه من الأبحاث فى بعض اللغات . وما أريد بالطبع أن أدفع السأم فى النفوس بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما أجتزىء بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من أمر هذا الكتاب... وهنا يدرك شهر زاد الصباح، فالى العدد المقبل إذا تفضلتم بالسماح ؟

أحمد حسن الزيات